من الحارة .. والى الحارة !

يقول رفيقي : عش للسماء ... وحلق بعيداً مع الانجم !!
ودونك افق فسيح المدى ... ترنم بقيثاره المـلهَم !!
تسام بدنياك فوق التراب ... ولا تحترق باللظى المضرم

★

وأصرخ في صاحبي ثائراً ... وأسأله أتكون السماء :
ديوكا وبطاً وخبزاً وماء ... وقصراً مشيداً بديع الرواء؟
ولكنـني كل يوم أنام ... وأشهد في الحلم هذا الهناء
وأصحو لتلفظني حجرتي ... الى «حارة» غاب عنها الضياء

★

ولكن لي يا رُفيقي سماء ... سماء تجوع وتعرى معي
أحِنّ إليها حنيناً قوياً ... حنين الصباح الى المطلع
على مهدها رقصت فرحتي ... وفوق ثراها جرت أدمعي
وعانقت أميَ في ليلها ... وخفت من الشبح المفزع

★

ومن رجل سُلخت رجله ... يشق الجدار ولا يرحم
وفيها رأيت ابي حائراً ... يغلفه صمته المبهم
سمائي التي فلسفت لي الحياة ... وفي ليلها لم أزل احلم
أما زلت تجهل ماذا أريد ... وتسخر مني ولا تفهم ؟ ؟

★

ففي «حارتي» يسكن الكادحون ... ويقضون ايامهم يحلمون .!!!
إذا ما بدا الفجر يستيقظون ... ويمضي النهار ولا يهدأون !!
وفي ليلهم يشربون «الحشيش» ... عساهم باحلامهم ينعمون ! !
عساهم يحسون ان الحياة بعين الخيال كعين اليقين ! ! !
عساهم يرون القصور التي ... بنوها لأسيادهم مجبرين ! !
بنوها وظلوا بأسوارهـا ... وعاشوا لابوابها حارسين
وفي نفثات الدخان المرير ... يضيعون اعمارهم مرغمين
وقد يضحكون وقد يرقصون ... وقد يفجأون بما يكرهون
فتمسكهم عصبة المخبرين ... وتلقي بهم في زوايا السجون
وأسمع « يا ليلُ يا ليلُ » تحكي ائتلاف الظلام مع البائسين
وجهل الضحايا بان الصباح ... سيطلع يوماً على الساهرين
وأسأل نفسي لماذا ترى ... لماذا بليلهمُ يهتفون ؟
لماذا يخافون ضوء الصباح ... ولا يحلمون بفجر مبين ؟

★

ومرّ بذهنيَ عهـد الصبا ... ويومٌ توارى وراء الحقب
وكان مساء وليل مطير ... ورعـد يفجر نار الغضب
ورحنا نقاوم سيلاً عنيفاً جرى حول منزلنا وانسكب
وراح ابي فيه يفضي الينا ... بان الشقاء علينا كتب !!
وان علينا الرضى بالقضاء ... وان المقدَّر امر وجب !!

★

وفي «مكتب الشيخ» قالوا لنا ... بان السماء بها ما نريد
وان القناعة كنز عجيب ... يظل مدى الدهر ما إن يبيد
وان بجارتنا منزلاً ... تهدم منذ زمان بعيد
عفاريته تحصب الساكنين ... وترهب كل شجاع عنيد
وحدثنا الشيخ عن جنة ... لمن يقنعون بعيش العبيد

★

وفي مسجد هدمته السنون ... سمعت نداء الامام العتيد
يحذر امثالنا المفلسين ... من المال !! من طمع الطامعين
وأسأل نفسي لماذا ارى الشيخ يصرخ في اوجه السامعين
لماذا يهددهم بالعذاب ... ونار تمزقهم اجمعين
وألعن في السر هذا الذي يكيل الشتائم للبائسين
ومن يومها كُوِّنت عقدة ... باعماق نفسيَ للواعظين
واصبحت حين ارى واعظاً ... يعود حيالي لماضي السنين
واذكر شيخي و« كتّابه » ... وتلقينه الجهل للناشئين
ومطرقة علمتنا الخضوع ... لمن يشترينا من الحاكمين

* * *

فيا صاحبي قد ورثنا الظلام ... ظلاماً تسربل اعماقنا
ظلاماً ورثناه منذ الصبا ... وصار يلوّن افكارنا ! !
ومن بين هذا الظلام الرهيب ... عرفنا الطريق لآمالنا ! !
عرفنا لماذا بنينا القصور ... وعشنا حيارى باكواخنا
عرفنا لماذا يقول الفقيه ... بان القناعة كنز الغنى
« خرافتنا » سر اغلالنا ... واوهامنا صنعت قيدنا
وحين نحطم اوهامنا ... سيبزغ فجر بآفاقنا
وحينئذ لن ارى الكادحين ... حيارى بليلهمُ يهتفون
وأسمع « يا ليل يا ليل » تحكي ائتلاف الظلام مع البائسين
ولكن سأسمع يا فجر أشرق ويا فجر حطم ظلام السجون
وتمضي الخرافة عن « حارتي » ... ويبتسم الفجر للساهرين

مصر — الزيتون

سعد دعيبس
المدرس بالزيتون الابتدائية